وكان المتقدّم منهم اثنان احدهما البابليّ الذي ذكرنا والآخر تلميذ فيثاغورس الحكيم من سكّان مصر

قال صاعد: وقد وصل الينا من مذهب هرمس البابليّ ما دلّ على تقدّمه في العلم من ذلك مذهبه في مطارح شعاعات الكواكب ومذهبهُ في تسوية بيوت الفلك. ومن ذلك كتبهُ في احكام النجوم مثل كتاب الطول وكتاب العرض وكتاب قضيب الذهب

ومن علمائهم بعد هرمس برجس صاحب كتاب اسرار النجوم في معرفة الفلك والدول واللاحم. ومنهم واليس صاحب كتاب الصور وكتاب اليرندج المؤلف في المواليد وتحاويلها والمدخل الى ذلك وكان ملكاً. ومنهم اصطفن البابليّ لهُ كتاب جليل في احكام النجوم وكان عند شعيب النبيّ عليه السلام

ولم يصل الينا من مذهب البابليين في حركات النجوم وصورة هيئة الفلك مذهب مستقصى ولا جملة (١ ولا عندنا من آدابهم في ذلك ولا من ارصادهم غير الارصاد التي نقلها عنهم بطلميوس اليوناني القلوذي في كتاب المجسطي فانهُ اضطرّ اليها في تصحيح حركات الكواكب المتحيرة اذ لم يجد لاصحابه اليونانيين في ذلك ارصاداً يثق بها (لهُ بقيّة)

تاريخ آداب اللغة العربيّة

نظر انتقادي للاب لويس شيخو اليسوعي

ظهر هذا التأليف حديثاً وقد دبّجهُ يراع كاتب اغنى بمؤلفاته المكاتب الشرقيّة فاستحقّ ان يُعدّ بين اهل بلادنا كمثال النشاط والبحث وهو الاديب جرجي افندي زيدان منشئ الهلال. وقد اقبل الادباء على هذا المصنّف الجديد إقبالهم على المصنّفات السابقة فاثنوا عليه الثناء الطيّب الذي هو جديرٌ بهِ. ولسنا نشذّ عن هذه

---

١) قد اكتشف الاثريّون آثاراً فلكيّة عديدة في جملة المخطوطات المسمارية ونشروها بالطبع منهم الآباء اليسوعيّون الالمان سترسماير وابينغ وكوغلر

الدائح ونحن اعلم بما يقتضيهِ كتاب مثل هـذا من المطالعات الواسعة والابحاث المملة ودقة النظر فبكل طيب خاطر نطريّ هـذا الأثر الجديد ونوصي بهِ اهل الادب عموماً وارباب المدارس خصوصاً

على اننا نعلم انَّ صاحب هذا الكتاب ارضى بنقيد عملهِ منهُ بمدحهِ مدحاً عقيماً لا يجدي بفائدة. وهذا ما حدا بنا الى درس الكتاب وامعان النظر فيهِ لبيان خواصهِ الحسنة التي اجاد بها الكاتب الفاضل وذكر بعض مناقصهِ التي يحسن اصلاحها في طبعة ثانية لتحصل على كتاب كامل من كل الوجوه يمكن اتخاذهُ كدستور مدرسي في نوادينا العلميَّة ومعاهدنا الادبية

*

واوَّل ما سرَّنا عند ظهور هذا الاثر الادبيّ انَّ عالماً شرقيًّا ذا استعداد سابق ومعارف واسعة تصدَّى لتأليف كهذا نحن فيهِ الى حاجة ماسَّة فانَّ ما كُتب من ذلك حتى الآن في اللغة العربية كخلاصة ادب اللغة لابراهيم افندي عبد الخالق وكتاب ادبيَّات اللغة العربيَّة للادباء عاطف بك ومحمد نصَّار واحمد ابراهيم وعبد الجواد وعبد المتعال (الجزء الاول) وكتاب ادب اللغة العربيَّة لمحمد حسن نائل المرصفي يدلُّ كلُّها على ضرورة وضع كتاب مستوفٍ لتاريخ الآداب العربيَّة فانَّ مصنَّفات هؤلاء الادباء مع فوائدها لا تفي بالمقصود وهي كما اقرَّ صاحب الفضل صالح افندي علي في تقريرهِ على تاريخ الادبيَّات العربيَّة الذي قدَّمهُ سنة ١٣٢٧ (١٩٠٩) اصاحب الدولة الامير محمد فؤاد باشا رئيس الجامعة المصريَّة " صورة مصغَّرة من كتاب مجاني الادب " الذي عنينا بنشرهِ قبل ثلاثين سنة ولا علاقة لهُ الَّا يسيرة بتاريخ الادبيَّات العربيَّة

فمن هذا القبيل قد فاق جناب جرجي افندي على سلفهِ بل جارى الكتبة الاوربيين الذين وجَّهوا النظر الى تاريخ آداب اللغة العربيـة كهامر پرغشتال (Hammer-Purgstall) وبروكلمان (Brockelmann) عند النمسويين والالمان وكأربثنوت (Arbuthnot) ونيكلسون (Nicholson) عند الانكليز وكدي ساسي (de Sacy) وهوار (Cl. Huart) وسيديليو (Sédillot) عند الفرنسويين وكدي باردي (G. F. de Bardi) وپيزّى (Pizzi) عند الايطاليين

وكجرجاس (Guirgass) عند المستشرقين فانَّ التأليف العربيَّ الجديد اغزر من هذه المصنَّفات الاوربيَّة مادَّة واكثر بحثاً

ثم نثني على وفرة الابحاث التي طرق المؤلف بابها وتتبَّع نتائجها واسبابها واستلفت اليها انظار الادباء

وكذلك سعى الكاتب بتنظيم هذه الابواب المختلفة فقدَّم عليها المقدَّمات التمهيديَّة لتحديد آداب اللغة ثم ألحقها بمنشورات في آداب اللغة قبل الاسلام مباشرةً بالجاهليَّة الاولى ثم الجاهليَّة الثانية منذ عهد التاريخ الى الزمن السابق للهجرة ثم اوائل الاسلام عند ظهور صاحبهِ الى عهد الخلفاء الراشدين ومنهُ الى اواخر دولة بني اميَّة وبها ينتهي الجزء الاول من الكتاب

وترى المؤلف في كل باب يعرض ما يراهُ اقرب الى الحقيقة دون تطرُّف ولا مبالغة ذاكرًا في آخر الباب او في ذيل الكتاب الاسانيد التي اعتمد عليها لاسيما التآليف الاسلامية القديمة كالاغاني وعمدة ابن الرشيق والبيان والتبيين للجاحظ والعقد الفريد لابن عبد ربّه والشعر والشعراء لابن قتيبة والمزهر للسيوطي وتاريخ الرسول لابن هشام وبعض التواريخ العموميَّة وتراجم الاعيان واخبار البلدان وكذلك راجع عدَّة مطبوعات اوربيَّة سرد جدولها في اوَّل الكتاب

فكل هذه المحاسن وغيرها ايضاً مما لا يخفى على الادباء فضلهُ تجعل لهذا الكتاب مقاماً جليلًا وتُحرز لصاحبهِ فخرًا نفع الله بهِ الآداب زمناً طويلًا

*

ومع ما عدَّدناه من محاسن الكتاب ووفرة موادهِ وصعوبة جمعهِ لا عجب ان يكون وقع فيهِ بعض الخلل فنثبت هنا ما لحظنا من ذلك لينال عند تكرار طبعهِ سهماً جديداً من الحسن ويزيد اعتباراً في اعين الأدباء وها نحن نوردِ ملحوظاتنا على كلّ باب بالترتيب

١ً (المقدَّمات التمهيديَّة) تشغل هذه المقدَّمات عشر صفحات عرَّف بها الكاتب مفهومهُ بآداب اللغة ونعم ما فعل الَّا انهُ استطرد الى ما كان عنهُ في غنًى لانهُ لو اراد احد ايضاحهُ لاقتضى فصولًا واسعة فذكر نبذةً عن اسبق الامم الى العلم في وادي الفرات ووادي النيل وانتقالهُ منهما الى بقيَّة العالم وألحق ذلك بفصل

آخر في الآداب اليونانيَّة . وكلّ ذلك من التوافل وعلاقتهُ مع مقدَّمات الآداب العربيَّة بعيدة ولذلك لم يمكنهُ ان يقابل بين تلك الآداب الاجنبيَّة وهذه الآداب العربيَّة فكان ذكرها بلا فائدة

ثم عاد الكاتب الى موضوعهِ وخصَّ نظرهُ بالآداب العربيَّة وخواصها المميِّزة لها ثم قسمها الى ستة اقسام حسب اطوارها الستة اعني الخلفاء الراشدين ثمَّ بني اميَّة ثمَّ بني العبَّاس الى الاعصار الثلاثة الاخيرة المغولي والعثماني والحديث

وهناك اقوال رماها الكاتب على عواهنها بل بالغ فيها الى حدّ المغالاة وتجاوز كلّ معقول كقولهِ (ص ١٥) « انَّ العرب قدوة الناس في المعاجم العلميَّة والتاريخيَّة وفلسفة التاريخ » وكلّ يعلم انَّهُ ليس لدينا معجم علمي صحيح وانَّ العرب لم يكتبوا الَّا النزر القليل في فلسفة التاريخ . ومثلهُ قولهُ (ص ٢٠) « انَّ آداب اللغة العربيَّة اغنى آداب العالم » وانها « كانت اساساً لآداب كلّ امَّة ظهرت في اثناء التمدُّن الاسلامي او بعدهُ حتى في اوربَّا » فان اقوالاً كهذهِ لا تجوز علينا مهما كان حبُّنا عظيماً للغتنا العربيَّة ولآدابها

٢ (آداب اللغة العربيَّة قبل الاسلام) هو الفصل الاوَّل الذي جعلهُ الكاتب كمفتتح تأليفهِ وقد قسمهُ الى بابين ذكر في الاوَّل آداب اللغة العربيَّة في الجاهليَّة الاولى اعني من العهد السابق للتاريخ الى القرن الخامس للميلاد وفي الثاني آدابها في العصر الجاهليّ السابق للاسلام اي من القرن الخامس للمسيح الى الدعوة الاسلاميَّة . ومن العجب انَّهُ ختم الباب الاوَّل في اربع صفحات لم يذكر فيها غير امور يسيرة يرتاب في صحتها اخصها تاريخ حمورابي وشريعتهُ المكتشفة قبل عشر سنوات في شوشن فزعم انَّ حمورابي عربيّ الجنس وان دولتهُ في بابل دولة عربيَّة . وهو امر كثر فيهِ القال والقيل ولم يتفق عليهِ العلماء الاثبات فبنى عليهِ اساس كتابهِ وهو اساس رملي لا يجديهِ نفعاً ولو سلمنا لهُ بعربيَّة حمورابي . ثم زاد الامر التباساً بل خبط خبطَ عشواء لمَّا حاول (ص ٢٥ — ٢٦) ان يبيِّن انَّ موسى الكليم استعار شريعة بني اسرائيل من شريعة حمورابي فتأثَّر اعقاب بعض المطلعين العصريين . العلَّة لم يعرف انَّ قوماً من كبار العلماء فنَّدوا تلك المزاعم الباطلة وبيَّنوا ما في شريعة موسى من الفضل على شريعة حمورابي ومن الاختلافات التي لا تحصى بينهما . امَّا ما يوجد بين الشريعتين من التوافق

فحملوه لا على نقل موسى لشريعة حمورابي بل على لسباب أخرى يطول بنا هنا شرحها فما كان اغنى بجرجي افندي ان يدع هـذه الابحاث في اوّل كتابه ولا ينقل عن نيلسن ما نقلهُ من امر حوريب وموسى النبي فقال:

فيرى نيلسن انّ حوريب مكان عبادة على نحو ما اخذهُ العرب عن الصابئة العراقيين من تقديس الجبال واقامة الحرم او الحمى حول المعابد بحيث لا يطأهُ الغرباء وانّ الغنم التي كان موسى يرعاها هي غنم الحرم وانّ النار التي رآهـا من رموز الصابئة عن الكواكب فلم يستطع موسى دخول الحرم لانهُ غريب فادخلهُ حموهُ وجعلهُ كاهنًا وعلّمهُ قواعد الدين. وانّ حوريب اسم الكوكب الذي يُعبَد هناك وفي اي حال فانّ موسى تعلّم الشريعة من يترو وهي شريعة حمورابي فادخل كثيرًا من احكامها في شريعته »

فيا لله كيف تساهل كاتبنا ان ينقل مثل هذه السخافات فيمحو بضربة قلم كلّ ما جاء في سفر الخروج من تاريخ الوحي لموسى بل جعل موسى كاهنًا وثنيًّا من كهنة الصابئة يعبد الكواكب وكذّب كلّ الآيات التي وردت في الكتاب الكريم وجعلها خرافة. افهذا كلّ ما وجدهُ بجرجي افندي لتاريخ اصول الآداب العربيّة ؟

بلى ذكر ايضا سفر أيوب (ص ٢٦) واناطهُ بالتبدّن البابلي (وهو العربي على زعمهِ) « على اثر نزوح الحموراويين من بين النهرين » وكل ذلك بلا دليل

وليس في هذا الباب شيء آخر وكان حقّنا انْ نطالب الكاتب بمباحث عديدة هنا محلّها فسكت عنها. فيا ترى أما كان في تلك المدّة شعوب يسكنون جزيرة العرب وماذا كان اصلهم ؟ وما هي اللغات التي كانوا يتكلمون بها ؟ اكانت العربيّة من جملتها ؟ وماذا يعرف عنها في التاريخ وفي التقليد وفي بقايا اللغات التي تأخرت الى الجاهليّة الثانية ؟ فقد ذكر الكتبة اليونان والرومان بعد المسيح لغةً يدعونها عربيّة فما هي هذه اللغة ؟ كذلك روى العرب قصائد وامثالًا يرقّون بعضها الى الاجيال السابقة لطور التاريخ (راجع المشرق ٦ : ٤٨٩) افيمكن اثبات صحة تلك الآثار تاريخيًّا ؟ . وغيرها من الابحاث الجليلة التي لم تخطر على بال المؤلف وكان حقّهُ ان يخوض في غمرها بدلًا من ذكر حمورابي وشريعته وقد اقرّ (في الصفحة ٢٧) انّ حكمهُ في ذلك « مبني على الحدس والتخمين » فترك الجوهر ليتعقّب الاعراض وعدل عن اللبّ الى القشرة الفارغة سامحهُ الله

٣ (آداب العرب في الجاهليَّة الثانية) هو الباب الثـاني من هذا الفصل وهو يستدعي من المباحث اجلَّها ومن المسائل ادقَّها . وغاية ما افردهُ لها جناب المؤلف تسع صفحات ويا ليتهُ دخل في المواضيع التي نحن اليها في اشتياق علَّهُ يفيدنا عنها علماً الَّا انَّه لم يعنَّها حقيقة فابتدأ (ص٢٧) بنبذة عن الفرق بين لغة الجاهليَّة الاولى والثانية اعني بين لغة حمورابي في شرائعهِ وهي الاشوريَّة وبين لغة مضر واهل البادية كأنَّهُ نسي انَّ في القرون الثلاثة السابقة للهجرة كانت في جزيرة العرب ثلاث دول عربيَّة ترقَّت الى اوج الحضارة والعمران اي الغساسنة والمناذرة والتبابعة وغاية ما وجدهُ هناك للمقابلة الكتابة التي وجدها العلَّامة دوسُّو في بعض جهات حوران على ضريح امرئ القيس بن عمرو بالخطّ النبطيّ في القرن الرابع للميلاد ثمَّ انتقل الى كلام اجماليّ عن ارتقاء اهل البادية في العقول والاخلاق وفي اللغة التي ضرب عليها بعض الامثلة في مفرداتها ثمَّ في التجارة والاقتصاد والتعقـل واصالة الآراء ثمَّ ختم ذلك بذكر المرأة في الجاهليَّة من حيث الشجاعة والرأي والحزم والادب وكل ذلك بكلام وجيز لا يشبع جائعاً ولا يبلّ صدى عطشان

فيا رعاك الله أهذا كلّ ما يدخل في هذا الباب من الابحاث وقد ظهرت اللغة العربيَّة في هذا الطور بآثارها العديدة ومصنفاتها الشعريَّة التي لا تحصى فتراهـا لغة ثابتة الاصول بالغة الى اقصى درجات الضبط صرفاً ونحواً وبياناً أفـا كان يجب البحث عن هـذه البقايا وكيفيَّة جمعها واختلاف رواياتها وابداء الحكم في صحتها وسبب توافقها مع صدورها عن مصادر شتى وعن قبائل اختلفت لهجاتها وغير ذلك من المباحث التي لا مناص لكاتب يريد تدوين تاريخ آداب اللغة العربيَّة من خوض عُبابها

وذلك فضلاً عمَّا في هذه الصحائف القليلة من المزاعم التي تحتاج الى ادلَّة راهنة وبراهين قاطعة فلم يثبتها ببيِّنة كقولهِ (ص ٣٠) « انَّ العرب ارقى الامم سياسيًّا واجتماعيًّا وان عرفناهم بدواً رحَّالة » . فاثبت ذلك بذكر الالفاظ العربيَّة الدالَّة على الجماعات « كالشعب والقوم والنفر والجماعة واللجنة والسرب والكوكبة » وهو برهان ضعيف ونحن نعلم ان كثرة المرادفات العربيَّة مصدرها تعدُّد القبائل وليست بدليل على سعة العمران . وكثير من هذه المرادفات التي ذكرها ليست عربيَّة بل استعارها العرب من الامم المجاورة فسقطت بذلك حجَّتهُ . خذ مثلاً المرادفات التي ذكرها هناك

للكتابة وانواع الكتب فاكثرها اعجميَّة . فالقلم والقرطاس والسجلّ يونانيَّة او لاتينيَّة . والورق والطرس والطلس والصحف حبشيَّة . والانبوب والرقيم والسفر والمجلة والمدرس والزمور عبرانيَّة او آراميَّة . والرهنامج فارسيَّة . وليس الاسل والصكّ والضبار واليراع والوصير افصح منها . فترى ماذا بقي من برهان جرجي افندي ؟ وقد تعجَّبنا انَّهُ سند حجتهُ الى مثل هذه الدلائل الضعيفة . ومثلها ضعفاً حجتهُ (ص ٣١) في اثبات ارتقاء العرب في التجارة والاقتصاد لكثرة الالفاظ الدالَّة عندهم على المال . فان معظم تلك الالفاظ التي ذكرها ليست بعربيَّة الاصل ومثلها اسماء السُّفن وادوات الصناعة

٤ (اقسام آداب العرب قبل الاسلام) ثم تخطَّى المؤلف (ص ٣٦) الى تقسيم الآداب العربية قبل الاسلام فقسمها الى اربعة اقسام : العلوم العربية والعلوم الطبيعيَّة والعلوم الرياضية وما وراء الطبيعة . فبين هذه الاقسام لا تستحقُّ الثالثةُ الاخيرة ذكرًا لانَّ ما قالهُ عن العلوم الطبيعيَّة وهي " الطب والبيطرة والخيل والانواء ومهابّ الرياح " لا يتجاوز ست صفحات (١٧٦—١٨١) وهو كلام اجماليّ لا يفيدنا افادة كبيرة عن معارف العرب الطبيعيَّة التي هي محصَّلات يسيرة اخذوها من جيرانهم الفرس او الروم او لا تتجاوز معرفتها المحسوسات كاسماء الكواكب والرياح واعضاء الجسم . وكذلك العلوم الرياضيَّة (١٨٢—١٨٦) فان ما ذكر من آثارها بين العرب في الجاهليَّة هو نزر قليل لا يُتَّخذ حجَّة لاسيما انَّهُ عدَّ الميثولوجيا من جملتها وشتان بين الرياضيات والميثولوجيا . اما ما انفرد بعلم " ما وراء الطبيعة " (١٨٧—١٩٠) فهو اسمٌ بلا جسم اراد به الكهانة والعرافة والقيافة وزجر الطير وضرب الرمل وكلها من الخرافات التي لا تستحقّ اسم العلم وكان الاولى بالكاتب ان يسكت عنها من ان يذلّل علم ما وراء الطبيعة بتظمها فيه . فبقي اذن كما قلنا القسم الاوَّل الذي وحدهُ يستلفت الانظار ويدخل في فحوى الكتاب اي " آداب اللغة العربيَّة "

وقد جعل المؤلف هذا القسم في سبعة ابواب : اللغة (٣٧ — ٥١) الامثال (٥٢ — ٥٣) الشعر الجاهلي (٥٤ — ١٦٧) الخطابة (١٦٨ — ١٧٠) الانساب (١٧١ — ١٧٢) الاخبار او التواريخ (١٧٢ — ١٧٣) اسواق العرب (١٧٣ —

١٧٥) فترى ان بين الابواب فرقاً عظيماً في السعة فان الشعر وحدهُ يستغرق ١١٣ صفحة وبقيَّة الابواب كلها لا تزيد على ٢٨ صفحة منها ١٥ للغة

كان من الواجب ان يبحث المؤلف في باب اللغة قبيل كل شيء عن نسبة اللغة العربيَّة الى بقيَّة اللغات المعروفة بالساميَّة لنعرف الى اي قسم منها تُنسب كي يثبت بالمقابلة مكانها بين اللغات المتشابهة بها. نعم انهُ افرد فصلاً (ص ٤٦) لمميزات اللغة العربيَّة وخصائصها الَّا انَّ كلامهُ هناك يبقى مبهماً ملتبساً لذهولهِ عن هذا التعريف السابق. ولو بيَّن تقسيم اللغات الساميَّة الى لغات شماليَّة وهي الاشوريَّة والاراميَّة والكنعانيَّة ومنها الفينيقيَّة والعبرانيَّة والى لغات جنوبيَّة وهي اللغات الاسماعيليَّة ولغات اليمن والحبشة لعرف انَّ العربيَّة من جملة الطائفة الاخيرة دون الاولى وعدل عن الزعم (ص٤٧) استناداً الى هذا البرهان اللغوي بوحدة اصل العرب والحموراييين.

نعم ان العربيَّة تشبه الاشوريَّة بالاعراب ولكن لا يكفي ذلك للقول بانَّ الأمَّتين كانتا امَّةً واحدة تتكلمان لساناً واحداً معرباً ألا ترى انَّ وجوه الشبه بين العربيَّة والآراميَّة او العربيَّة والعبرانيَّة اعظم واوفر ولا احد يقول بوحدة العرب والآراميين او العرب والعبرانيين

وكم للمؤلف في هذا الباب من المزاعم التي تحتاج الى اثبات يرويها جنابهُ باسطر قليلة ويضرب عليها مثلاً خفيفاً لا يقتنع بهِ صاحب بحث كقولهِ هناك عن دقَّة التعبير (ص ٤٧) وعن الاعجاز والايجاز (ص ٤٨) والسجع (ص ٥٠) وغير ذلك ممَّا يتفكَّه بهِ قارئ لم يتعنَّق بالدرس لكنَّهُ لا يرضي اديباً يتروَّى في الامور. هذا الى ما ضرب عنهُ صفحاً فلم يتعرَّض للبحث فيهِ البتَّة وكنَّا يودّ لو بُسط فيهِ الكلام وطُلب لمشكلهِ حلٌّ معقول كمسألة الفعل المجهول والجمع المكسر والتنوين وكلها من مميزات اللغة العربيَّة

ومثلهُ باب الامثال. كان ينبغي على المؤلف انَّ يخصَّ بنظرهِ امثال الجاهليَّة ويبيِّن خواصها ومميزاتها وكيف هي من ادلّ الدلائل على احوال اهل الجاهليَّة وعاداتهم وتاريخهم ولا يخلط بينها وبين الامثال التي تأخَّرت عن زمن الجاهليَّة وغايتهُ في هذا الباب ان يبحث عن آداب العربيَّة السابقة لعصر الاسلام لا عن سواها

قلنا انَّ باب الشعر اوسع الابواب في هذا القسم. وقد استفاد في كثير من

الابحاث التي قدّمها عليه من كتاب الاياذة لجناب سليمان افندي البستاني ونعم ما فعل وكذلك نقل كثيراً من كتاب العمدة لابن الرشيق وهو من امتع الكتب واغزرها مادّة ومع هذا فكم ترى بحثاً جليلاً فات المؤلف ولم يصرف اليه نظر النقد وراند الفكر . كالبحث في فصاحة الشعر الجاهلي اهذا الشعر أُنشد كما رواه الرواة بعد الاسلام بمدّة طويلة او تصرّف فيه الرواة وضبطوه بعد ذلك على لغة قريش . وكالبحث عن اصل اوزان الشعر وما لها من العلاقة مع اوزان الامم المجاورة . والبحث في اديان الشعراء وما في قصائدهم من شواعر الدين والتوحيد والاشارات النصرانيّة والاقتباسات من الاسفار المقدّسة كما بيّنّاه في بعض مقالاتنا في المشرق . والبحث في طبقات الشعراء (ص ٧٦) وما السبب لجعل البعض في الطبقة الثانية دون الاولى . وماذا يُراد بتلك الطبقات . وكذلك كان من الواجب ان يفرد في هذا المقام بحث للمجاميع الشعريّة القديمة كالمفضليّات والحماسات والاصمعيّات مع بيان تاريخها وخطورتها . ثم لا نظنّ ان جناب المؤلف احسن في تقسيم شعراء الجاهليّة من حيث اغراضهم الى ١٣ طبقة (ص ٩٤ — ٩٦) اذ انّ هذا التقسيم يتداخل بعضهُ في البعض الآخر فان اصحاب المعلقات منهم امراء وملوك كامرئ القيس وعمرو بن كلثوم فيدخلون من هذا القبيل في طبقة الشعراء الامراء وكذلك منهم حكماء كزهير فيدخلون بذلك في جملة الشعراء الحكماء . كذلك طبقة الشعراء الفرسان يدخل بعضهم في طبقة الامراء او الوصّاف للخيل او الموالي . وكذلك الصعاليك ربّما دخلوا في طبقة العشاق . وخلاصتهُ انهُ لا يمكن افراز طبقة من طبقة فان المميزات التي ذكرها لكل طبقة لا توافق حقيقة الامر . وكان الاولى ان يقسم الشعراء اما على حسب ازمنتهم او امكنتهم التي عاشوا فيها او على مقتضى اصولهم وقبائلهم

ويلي هذه المقدّمات عن الشعر الجاهلي ثمانون صفحة (٩٨ — ١٦٧) ضمّنها المؤلف نحو مئة ترجمة من تراجم الشعراء اقتطفها عن الكتب الشائعة كالاغاني وكالشعر والشعراء لابن قتيبة وخزانة الادب وكتابنا شعراء النصرانيّة

وما يقال اجمالاً عن التراجم انّها لا تفي بالمقصود نقلها الكاتب في اسطر قليلة مع ذكر بعض الابيات دون ان يبدي رأيهُ في حسن شعر كلّ شاعر او سوئهِ ويحكم في خواصّهِ وتأثيرهِ في القوم ونتائجهِ . فانّ تأثير الآداب العربيّة يقتضي

كلّ ذلك. ولعلّهُ لم يراجع بعض المطبوعات الاوربيَّة التي كان من شأنها ان توقفهُ على بعض هذه الفوائد كتآليف العلّامة دي ساسي (de Sacy) وكوسان دي پرسڤال (C. de Perceval) والمستشرق نولدك (Noeldeke) وغيرهم ممّن لم يذكرهم في جدولهِ

ثمّ لا نعلم كيف ادخل في سلك شعراء الجاهليَّة كثيرين من الشعراء الذين عاشوا في الاسلام زمناً طويلاً حتّى خمسين سنة بنيّف كالحطيئة الذي عاش الى زمن بني اميَّة (ص ١٥٠) وحسّان بن ثابت (ص ١٥٢) المتوفّى على قولهِ سنة ٥٤ للهجرة. ومعن بن اوس (ص ١٦٣) الوافد على عمر بن الخطّاب الخ

وكذلك لم يفدنا جنابهُ على سبب تدوينهِ لتواريخ بعض الشعراء فانَّ كثيراً منها لايصحّ مع ما نعلمهُ من اخبار اصحابها فانَّهُ جعل مثلاً وفاة الشنفري (ص ١٤٤) في السنة ٥١٠ ويؤخذ من اخبارهِ انَّهُ عاش بعد هذه المدَّة زمناً طويلاً. وكذلك روى وفاة طرفة بن العبد في السنة ٥٥٠ وتعلم من اخبارهِ انَّهُ قُتل لهجوهِ الملك عمرو بن هند الذي ملك بعد ذلك بنحو ١٢ سنة فلا بدَّ اذن من تأخير وفاتهِ الى سنة ٥٦٥ تقريباً. وكذا يقال (ص ١٢٦) عن زهير بن جناب الذي عيّن لوفاتهِ سنة ٥٠٠ م وفي اخبارهِ ما يشير الى وفودهِ على ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء وعلى ابرهة ملك الحبشة فاتح اليمن وهذا ما يوجب تأجيل موتهِ الى نحو السنة ٥٥٠ وقس عليهِ تواريخ أُخرى تحتاج الى زيادة نظر وضبط كقولهِ (ص ٣٩) انَّ اضطهاد ذي نوّاس لنصارى اليمن كان في القرن الخامس للميلاد والصواب في العشر الثاني من السادس

هذا ولا نطيل الكلام في الخطابة (ص ١٦٨) والانساب (١٧١) والاخبار او التاريخ (ص ١٧٢) لان المؤلف لم يزدنا علماً على ما يعرفهُ مَن لهُ إلمام يشيء من تاريخ العرب. امّا اسواق الجاهليَّة فامكن جنابهُ ان يشير الى مقالة حسنة كتبها في المشرق (١ : ٨٦٥) الاديب شكري افندي الالوسي

﴿ عصر الراشدين ﴾ هذا القسم يتناول تاريخ الاداب العربيَّة من بدء الهجرة الى سنة مبايعة معاوية بن سفيان اوّل ملوك بني اميَّة اعني مدَّة اربعين سنة تولّى فيها الامر صاحب الشريعة الاسلاميَّة ثمّ خلفاؤهُ الاربعة اعني ابا بكر ثم عمر بن

الخطاب ثمَّ عثمان بن عفان ثمَّ علي بن ابي طالب مع ولديهِ الحسن والحسين. وقد حشر جورجي افندي تاريخ الآداب مدَّة تلك الحقبة في ١٦ صفحة بحث فيها اوَّلاً عن التغيير الذي احدثهُ الاسلام في العرب ثمَّ تأثير ذلك التغيير في آداب اللغة من شعر وخطابة وانشاء وعلوم قرآنيَّة وختم ذلك بفصل عن الخطّ العربيّ

وهذه الابحاث حسنة لكنها مع فائدتها تحتاج الى زيادة في الانتقاد وتعمُّق في البحث كمقابلتهِ بين خطباء الرومان واليونان وبين خطباء العرب حتى كاد يفضِّل هؤلاء على اولئك فقال (ص ١٩٤) : « العرب لم يأتوا باقلّ ممَّا أتى بهِ اولئك بلاغةً ووقعاً وربَّما كان الخطباء في الاسلام اكثر عددًا وخطبهم اوفر وابلغ » وهو قول فيهِ اجحاف بحقوق الرومان واليونان ولو اطَّلع جنابهُ على خطبهم لرأى انَّ الفرق بينهم كفرق الثريَّا والثرى. فان الخطابة بلغت عند الرومان واليونان شأوًا لم يدركهُ العرب. وخطب العرب مهما كانت بلاغتُها لبعيدةٌ جدًّا عن بلاغة خطب اليونان واساليبها. وكأنَّ المؤلِّف شعر بافراطهِ فزاد قولهُ « مع اعتبار الفرق بين الأمَّتين لغةً وخلقاً وادباً » وكفى بهِ اقراراً لطيفاً بتقدُّم اليونان والرومان

وكذلك قولهُ في الشعر وتقهقرهِ في ذلك الطور كان يجب على الكاتب ان يتَّسع فيهِ ويبيِّن الاسباب التي ادَّت الى ذلك الخلل فانهُ ذكر بعضها وسها عن بعضها الآخر وفي اقوال القدماء ما يكشف القناع عن الامر

اما العلوم القرآنيَّة التي كتب فيها صفحتين فقط فانَّها تستدعي ابحاثاً طويلة تراها في كتاب الاتقان في علوم القرآن للسيوطي وفي كتاب الفهرست وغير ذلك ولعلَّ جنابهُ فضَّل الحيادة عن هذه الابحاث التي اتَّسع فيها المستشرقون ولا يحبُّ المسلمون ان يكتب فيها غير اهل ملَّتهم

ليس بحث الكاتب الاديب في الخطّ العربيّ من الروافل فاحسن بالكلام عنهُ ولكن كان يجب ان يستعين بما كتبهُ الفرنج في ذلك بعد الاكتشافات المستحدثة من الرقّ والبابير والكتابات الحجريَّة قبل الاسلام فكان زاد بذلك بحثهُ وضوحاً

﴿ العصر الاموي ﴾ هو الفصل الاخير من هذا الجزء خصَّهُ المؤلف بآداب اللغة العربيَّة مدَّة دولة بني اميَّة منذ ظهورها سنة ٤١ الى سقوطها بفوز بني العبَّاس عليها

وهو لا يقلّ عن ١٠٨ صفحات افتتحهُ بكلام اجمالي عن مميزات هذا الطور (٢٠٧—٢١٣) والعلوم الشرعيَّة واللسانيَّة التي انتشرت في مدَّتهِ (٢١٥—٢٣٤) وخصَّ الباقي (٢٣٥—٣٠٨) بالشعر والشعراء وختم (٣٠٩—٣١٥) ببعض الملحوظات التي جعلها كخاتمة لمجاثهِ

احسن المؤلف في بيان حالة العرب من الاختلاف وتنازع السلطة في اوائل دولة بني اميَّة. وكذلك اصاب بذكر آداب الروم واليونان والفرس عند الفتح الاسلامي لكننا لا نوافقهُ في قولهِ (ص ٢١١) عن انحطاط مدارس تلك الامم فنسبهُ زوراً « الى مقاومة رجال الدين » وكذلك وهمَ بقولهِ « انَّ كتب الفلسفة أُهملت لانَّها في نظر رجال الدين عثرةٌ في سبيل الدين » فلعمري من عُني بكتب الفلسفة وتأليفها وشرحها كرجال الدين ؟ ومن يدرسها اليوم كما يدرسها اهل الدين ؟ وفي زمن الفتوح الاسلامي كان معلّمو الفلسفة ومفسّرو ارسطو اكثرهم من رجال الدين. فان كان وقع بعض الاهمال في تلك الدروس فالدين منهُ براء. واساء جرجي افندي الظنَّ برجال الدين اذ نسب اليهم اعتبار الفلسفة كعثرة في سبيل معتقدهم

ولا نتبع المؤلف في كلّ باب من ابواب العلوم الاسلاميَّة فانهُ اختصر بنوع واضح ما كتبهُ العرب عن اصول العلوم الشرعيَّة كالقراءة والتفسير والحديث والفقه واصول العلوم اللسانيَّة كالصرف والنحو وضوابط القراءة وعن العلوم التاريخيَّة والجغرافية وقد وافقنا في كلّ ما كتبنا في مقالتنا عن علوم العرب (في المشرق ص ٢٩٩—٣٠٧) فقلنا انَّ معارفهم في تلك الحقبة كانت بعدُ في نشأتها ولم تنضج الَّا بعد الدولة الاموية فبقيت تلك المعارف بالتقليد الشفاهي حتى قام العلماء بعد ذلك في عهد بني العبَّاس فاخرجوها الى حيز الوجود. واوَّل كتاب ظهر على يد العرب كان في اواسط القرن الثاني للهجرة كما روى الحاج خليفة (اطلب قولهُ في المشرق ص ٣٠٣—٣٠٤) امَّا المدارس والدروس المنظَّمة فلم نجد لها اثراً في تلك المدَّة وأضرب عنها جرجي افندي لعلمهِ بانَّها لم تُذكر في ايَّام الدولة الاموية وخلفاؤها مشغولون بحروبهم او منهمكون في لذَّاتهم لكنَّ الانصاف كان يقضي عليهِ بذكر ذلك الاهمال بل أقفل كثير من مكاتب النصارى كمدرسة نصيبين الشهيرة وبقي التدريس منزوياً في بعض الاديرة الرهبانيَّة المنزلة

وكأنَّ الشعر في هـذا العهد ايضاً بقي علم العرب المفضَّل وديوانهم الاعلى ولذلك خصَّ بهِ المؤلف معظم هذا القسم الاخير من كتابهِ (من ص ٢٣٥ الى ٣١٢) وطريقتهُ في وصف الشعر والشعراء كطريقتهِ في القسم السابق. قدَّم عليهِ ملحوظات عموميَّة في مزايا الشعر في العصر الاموي وزعم انَّهُ امتاز بخلوهِ من وحشيّ الكلام وبكثرة التشبيب والنسيب والمهاجيات ووصف الخمر الَّا انَّ هذه المزايا يمكن اثباتها للجاهليَّة ايضاً او لعصر العبَّاسيّين وعلى كلّ حال لا بُدَّ لبيان زعمهِ من بيِّنات اوضح واوفر. افيرى مثلاً جنابهُ انَّ شعر الفرزدق وجرير واصحاب الاراجيز اخلى من الوحشي من شعر النابغة والاعشى ؟

وممن يستحقون ذكرًا خاصًّا بين شعراء بني أُميَّة الاخطل وجرير والفرزدق فذكرهم المؤلف الَّا انَّ كلامهُ فيهم بعد نشر دواوينهم واخبارهم في مؤلفات عديدة ظهرت في هذه السنين الاخيرة ليس بكافٍ

وكذلك اشار اشارةً خفيفة الى روَّية إمام الراجزين وكان اجدر بالذكر من غيرهِ وقد طبع ديوانهُ هلوردت مع اراجيز الرُّقيان

وقد ختم الكاتب الاديب هذا الفصل (ص ٣٠٩) ببعض فصول رأى لها علاقة بالشعر والشعراء كاستحثاث الشعراء لقرائحهم وجهل الشعراء للقراءة. ومن الفصول الظريفة التي هناك فصل عنوانهُ « شياطين الشعراء » (ص ٣١٠) روى المؤلف ما كانوا يزعمون من ايحاء الشياطين بالشعر لشعرائهم. وكان الاولى ان لا يطرق هذا الباب او يبحث فيهِ بحثاً علمياً فانَّ جنابهُ انكر غير مرة في الهلال (اطلب المشرق ١ : ٢٣٨) وجود الشياطين فكيف عاد الى هذا الامر دون ان يبدي فيهِ رأياً .

وعندنا انَّ شياطين الشعراء عند العرب انَّما كانوا بمثابة ما تخيَّلهُ اليونان والرومان من إلهات الشعر (les Muses) كانوا يلتجئون اليهم في نظم قصائدهم

واردف الكاتب كلامهُ بفصل قصير عن الخطابة والانشاء في العصر الاموي وكان حقُّهُ ان يتسع في هذا الموضوع ويصف ما صبر من ذلك العهد على آفات الزمان من خطب وروايات ورسائل فيدرسها درساً مدققاً وهي من بواكير المصنفات النثريَّة التي نقلها الرواة الأثبات منها رسائل عبد الحميد الكاتب الذي ضُرب المثل في بلاغتهِ ولهُ رسائل مستجادة نشر قسماً منها الشيخ المفضال طاهر افندي الجزائري في

القدس ثمَّ طُبع على حدة ومن اعمل فيها نظر الفكر وجدهـا من افضل آثار ذاك العهد لفظاً ومعنى. ومنها كتاب كليلة ودمنة الذي يُعتبر تعريبهُ كفاتحة التعريبات عن الكتب الاجنبيّة

هذه ملحوظاتنـا على كتاب تاريخ الآداب العربيَّة كتبناها بسرعة ولم يسمح لنا ضيق الوقت ان نتتبع كلّ فصول الكتاب باباً باباً ولا شكّ ان المؤلف اذا تروّى في عملهِ يجد فيهِ غير ما حرَّرناهُ في هذه العجالة. ونكرّر في الختـام شكرنا لجنابهِ مؤمّلين ان نرى عمّا قليـل الاجزاء التالية جامعة لاسباب الحسن والاتقان

الانجيل الشريف

بحث نظري تاريخي للاب اطون رباط اليسوعي (تابع)

الفصل الثالث

في ان الاناجيل المقدسة صادقة النقل

بعد ان اثبتنا نسبة الاسفار الانجيليَّة الى المؤلفين المعزوَّة اليهم اي الى الرسولين متّى ويوحنا والرسوليَّين مرقس ولوقا واستفتينا التـاريخ والنقد العلمي فأفتيا ببراءة اسفارهم من كل تحريف وتزييف وانها هي هي كما خطَّتها يمين المؤرخين المختارين قد بلغنا الآن الى المرحلة الثالثة من ابحاثنا الانجيليَّة وهي النقد العلمي لتآليفهم لنعرف نصيبها من الصدق. يدّعي كتبة العهد الجديد انهم يشهدون للحقيقة ويبشرون بما رأوا وسمعوا وتأملوا ولمستهُ ايديهم من جهة كلمة الحياة ابن الله المتجسد (رسالة يوحنا الاولى ١: ١) ولكن أنّى لنا ان نتثبّت صدق مدّعاهم؟ وما هي حجّتهم في حقيقة ما اخبروا؟

ومن ثمَّ يرى القارئ الاديب عظم خطورة هذا البحث الاساسي. فما الفائدة من كتابة عرفتَ صاحبها وتأكدتَ براءتها من التحريف اذا كان مؤلفها ممَّن لا يوثق بكلامهِ وان عرضتها على محكّ النقد بانَ اختلاقها للعيـان. لا سيَّما وان الموضوع ليس ممَّا لا يُعتدّ به ولا يُكترث لهُ فهو اهمّ المواضيع لِما وراء قبولهِ او رفضهِ